ولكنّنا... لا نبدأ... من فراغ!

محمود أمين العالم

ما أكثر ما جلست ـ منذ عام ١٩٦٧ حتى اليوم ـ لأردّد على استفتاء مشابه لهذا الاستفتاء! فمنذ ذلك التاريخ بل ومن قبل ذلك التاريخ بكثير، ونحن نتدحرج من هزيمة الى أخرى، ونجلس ـ نحن المثقفين العرب ـ عقب كل هزيمة، لنتساءل: «ما هو الدور الذي ينبغي ان نضطلع به للاسهام في «الخروج» من الهزيمة؟»... ثم لا نلبث ان «ندخل» في هزيمة جديدة!

ـ لا... لست متشائماً على الاطلاق، ولست استنكر جلوس المثقفين للتأمل وابداء الرأي عقب كل حدث كبير، هزيمة كان أم انتصاراً. على ان المهم أن نتعرّف وان نتعارف موضوعياً على حقيقة ما حدث، ما يحدث، وان نحاسب أنفسنا حساباً أميناً عن حقيقة ما فعلناه في مواجهة هذا الحدث، وماذا كان ينبغي ان نفعل، ولماذا لم نفعل ما كان ينبغي ان نفعل، ثم ماذا علينا أن نفعل. وألا يكون الأمر مجرد «فك مجالس»، كما يقال، او نوعا من التطهير والتطهر الذي يخلصنا من عبء ما نحمل من مسؤولية، ثم لنواصل بعد ذلك «ريمة عادتها القديمة»، تعيد انتاج كل الممارسات الفكرية السابقة التي تدحرجنا ونتدحرج بفضلها الى الهزيمة... المتصلة.

● ولهذا فقد يكون الجديد في هذا الاستفتاء الجديد الدعوة الى «مراجعة الفكر واعادة تقييم الدور» في مسيرة النضال العربي ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية والتخلف». ولكن اتساءل: ما هو معيار المراجعة والتقييم؟ فلو استبعدنا قلة من المثقفين الذين يجهرون بتخلّيهم عن مسيرة النضال العربي، فما أكثر المثقفين الذين يسهمون بمحتوى فكرهم ومنهج ممارستهم في عرقلة النضال العربي او حرفه عن مسيرته.

○ ما هي اهداف النضال العربي؟ من هم أعداء هذه الأهداف، ومن هم حلفاؤها واصدقاؤها؟ وما هو الطريق لتحقيق تلك الاهداف؟

هل يتفق المثقفون العرب جميعاً في اجاباتهم على هذه الاسئلة الأولية؟ انهم يختلفون، ومن الطبيعي ان يختلفوا. على أن هناك فارقاً بين اختلاف الاجتهادات لتحقيق الهدف، وتناقض هذه الاجتهادات مما يؤدي الى تناقض الاهداف.

حقا، ان مسؤولية الهزيمة التي نعانيها لا تقع مباشرة على عاتق المثقفين العرب. إنما تقع أساساً وعملياً على عاتق قيادات أنظمة الحكم العربية، وعلى الهياكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في البلاد العربية. على أن بين المثقفين العرب من كانوا جواهر حقاً في قلب اللهيب المحتدم، في قلب بيروت، شجاعة ووعياً وفاعلية. وكانوا ـ مع غيرهم من آلاف المناضلين الفلسطينيين واللبنانيين والعرب ـ انتصاراً عربياً بطولياً برغم الهزيمة. غير ان للهزيمة مثقفيها، أو بتعبير أدق، لصانعي الهزيمة ومريديها مثقفوهم ومفكروهم ومبررو سياساتهم وممارساتهم، بوعي او بغير وعي، بشكل مباشر او بشكل غير مباشر.

○ إن للهزيمة وجهين، وجه نظري ووجه عملي. اما الوجه العملي فله بُعْدان: بعد مباشر تكفلت بتنفيذه الاسلحة الامريكية وجيوش الدولة الصهيونية، وتواطؤ الانظمة العربية، وبُعد غير مباشر هو الحرمان من الديمقراطية وسيادة القمع البشع للتحركات الجماهيرية واهدار حقوق الانسان الذي تمارسه مختلف الأنظمة العربية. أما الوجه النظري، فهو القيم الايديولوجية السائدة في العالم العربي عبر وسائل الاتصال الجماهيري إذاعة وتلفزيون ومجلات وجرائد ومسرحيات وافلام وهي

في أغلبيتها الساحقة تملكها وتحتكر ملكيتها أنظمة الحكم العربية، ويغذيها عدد هائل من أهم وأكبر المثقفين العرب بانتاجهم الاعلامي والسياسي والفكري والاقتصادي والأدبي، هذا الانتاج الذي قد لا يتناقض في مضمونه مع ضمائر منتجيه، على أنه مشروط بالا يتناقض مع سياسات من يملكون هذه الوسائل الاتصالية والثقافية وممارساتهم!! وهكذا كلما زاد هذا الانتاج روعة ورفعة كلما كان جسراً لتمرير أشد السياسات والممارسات تخلفاً وتعارضاً مع «مسيرة النضال العربي»!!

○ عندما كتب الاستاذ محمد حسنين هيكل منذ فترة بعيدة عن أننا نعيش في «حقبة سعودية» كان محقاً وموفقاً، ولكن جانبه الحق وخانه التوفيق عندما قال في ذلك الوقت «إن ما لم تستطع الثورة ان تحققه، سوف تحققه الثروة»!! ذلك انه لم يدرك الدلالة الطبقية والاجتماعية للثروة السعودية التي هي بممارساتها وبطبيعة من يُسيطرون عليها نقيضة للثورة العربية. وحسناً فعل جزئياً في حديث له أخير في جريدة «الأهالي» المصرية، عندما قال إن الحقبة السعودية انتهت لأنها فضلت المصلحة الاجتماعية على المصلحة الوطنية. [كأنما لها مصلحة وطنية!] وقال ان الحقبة السائدة اليوم هي الحقبة الاسرائيلية. ولا أدري لماذا يرى الاستاذ هيكل «البرذعة» ويخفي «الحمار»!؟ فاذا صح ان نتحدث عن حقبة سائدة، فهي بغير شك الحقبة الامريكية. وليست اسرائيل الا «برذعة» هذا «الحمار بوى» الامريكي. أما الحقبة السعودية فالحق أنها ما انتهت. ذلك أنها جزء من الحقبة الأمريكية. ولكن دورها ليس تحقيق ما لم تستطع الثورة العربية ان تحققه وانما دورها هو ضرب هذه الثورة مستخدمة في ذلك الثروة. وكل ما استطاعته هذه الثروة ان تحققه أخيراً هو أن تسهم في اخراج الفلسطينيين من بيروت!! ــ والاستاذ هيكل يستقل هذا الدور، ولهذا يرى ان حقبتها قد انتهت ــ والحق انها حقبة متآزرة متعضونة متناسجة متصلة مع المشروع الامريكي الصهيوني في المنطقة العربية ــ وجرائدها ومجلاتها الواسعة الانتشار، المفتوحة لها الأبواب في اغلب البلاد العربية، هي منابر دعوة وأبواق دعاية لما يسمى «بالرؤية الامريكية» للحياة، بل للمخطط الامريكي عامة في المنطقة العربية. سياسة واقتصاداً وثقافة.

○ أكاد أجزم بأن الوجه النظري للهزيمة يتمثل فكرياً في اشاعة الوعي الزائف، بل افقاد الوعي الموضوعي، وسيادة اللاعقلانية، والنظرة التجزيئية، والذاتية النفعية، والروح الاستهلاكية بغير رصيد انتاجي، فضلا عن روح التسطح والتعالي الفردي والسلبية واليأس والاغتراب وكراهية الفكر العلمي او تقديمه تقديماً اسطورياً أو إجرائياً، وتشويه المفاهيم والقيم الاشتراكية. كما يتمثل هذا الوجه النظري للهزيمة سياسياً في تغييب الطبيعة الامبريالية العدوانية الاستغلالية للولايات المتحدة الامريكية وإبرازها باعتبارها مجرد دولة كبرى صديقة في يدها الاوراق الاساسية الحاسمة للعبة السياسية؛ نعم قد تكون في سياستها أخطاء ونواقص ولكنها أخطاء ونواقص جزئية، او بسبب ضغط «اللوبي» اليهودي ليس الا، ويمكن بضغطنا ان نغير او نقلل من هذه النواقص والأخطاء وكذلك الامر بالنسبة لاسرائيل، فهناك تغييب لطبيعتها الصهيونية، وإبراز الصراع معها كأنما هو مجرد صراع مع حكومة متشدّدة فيها هي حكومة بيجن وشارون. فضلا عن محاولة التضخيم الوهمي للخلاف بينها وبين الولايات المتحدة الامريكية الى حد التناقض الحاد! اما في الطرف الآخر، فهناك الاتحاد السوفياتي، الذي يصوَّر دائماً في صورة العدو «رقم واحد» والخطر الاساسي، أولا لإلحاديته، وثانيا لتطلعه لبسط نفوذه!؟ وهكذا تصبح القضية الافغانستانية فضلا عن البولونية التي من أبرز المعارك الاعلامية تغذي العداء للاتحاد السوفيتي وتشكك في نواياه ومواقفه المساندة والمؤيدة للنضال العربي عامة والفلسطيني خاصة. وهكذا الشأن بالنسبة لبقية البلاد الاشتراكيةَ وللقوى الديمقراطية والثورية في العالم.

حتى المفهوم القومي لم يسلم من تشويه وتزييف نتيجة للممارسات العلوية البيرقراطية الخالية من الديمقراطية، والزاخرة بشتى الوان التسلط واهدار كرامة الانسان الوطنية والقومية والثقافية، بل اتخاذ القيم القومية ستاراً لإخفاء وتحقيق اهداف اقليمية شوفينية ضيقة.

○ إن هزيمة الهزيمة ينبغي ان تتم في وجهيها العملي والنظري في آن واحد. ولسنا نبدأ من فراغ، أو من نقطة الصفر. ان ما تم في مصر، أو في لبنان، وما يتم على مستوى الوطن العربي كله، ليس نهاية مرحلة تستدعي بداية مستجدة، بل هي حلقة من حلقات معركة متصلة. ففي قلب ما حدث ويحدث في مصر ولبنان وفي مختلف انحاء وطننا العربي كانت وما تزال تحتدم صراعات وتتألّق بطولات. المهم أن نفهم حقيقة

هذا الصراع، وان ننخرط فيه فكرياً وتنظيمياً. إن الهزيمة التي نتحدث عنها هي ــ رغم كل شيء ــ تعبير عن احتدام وتفجّر في الصراع الطبقي والنضال الوطني العربيين اللذين يتناسجان معاً في معركة حاسمة من

ان الثورة العربية تخوض منذ سنوات مرحلة حاسمة من مراحلها، هي مرحلة استكمال انجاز ثورتها الوطنية الديمقراطية في طريق التحول الاشتراكي. لقد أثبت صراع العشرينات والثلاثينات من هذا القرن فشل الفئات الاقطاعية ــ البورجوازية في قيادة حركة التحرر الوطني العربي. كما اثبت صراع الخمسينات والستينات عجز البورجوازيات الصغيرة العربية عن مواصلة حركة التحرر الوطني العربية بثبات وحسم، وليس ما نشاهده اليوم ارتداداً في حركة الثورة العربية بقدر ما هو تعبير عن هجمة شرسة للقوى الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية، نتيجة لبداية بروز قيادة طبقية جديدة لحركة الثورة العربية هي الطبقة العاملة العربية ــ التي اخذت تنخرط في عملية النضال. ولهذا اخذت وعياً وتقدمياً الفئات الريفية والطفيلية من الرأسمالية العربية ترتبط ارتباط تبعية وولاء بالامبريالية الامريكية حماية ودفاعاً عن مصالحها المشتركة، في مواجهة النضال والوعي الصاعدين لقوى الثورة العربية وفي مقدمتها الطبقة العاملة العربية وأحزابها الشيوعية.

وهكذا يحتدم الصراع احتداماً لا مثيل له في وطننا العربي، ولهذا تتجاوز بعض الشرائح من البورجوازية العربية كل حد في خيانتها السافرة وعمالتها المباشرة للامبريالية والصهيونية. لكن ما تزال بين صفوف البورجوازيات العربية فئات وشرائح تتناقض بمستوى او آخر مع هذا المشروع الامبريالي الصهيوني الرجعي، وهي تشارك بفاعلية في النضال الثوري الدائر. ان انتهاء تفردها بالدور القيادي للثورة العربية، لا ينهي دورها النضالي في الثورة العربية. وقيادة الطبقة العاملة لهذه الثورة ليست قيادة تفرض فرضاً بانقلابات علوية كما فعلت البورجوازيات الصغيرة في الاربعينات والخمسينات. وانما تنمو هذه القيادة بالجدارة النضالية وبالعمل الديمقراطي الدؤوب، والكفاءة في خدمة الجماهير العربية وحل مشاكلها وتحقيق اهدافها.

والمعركة بين هذه الكتلة الثورية الجديدة المتحالفة الصاعدة في قلب النضال العربي وبين الكتلة الامبريالية الصهيونية الرجعية تتم على الوجهين او المستويين العملي والنظري. ولعل الجانب النظري او الايديولوجي ان يكون أخطر الجوانب في المعارك المحتدمة اليوم، بين قوى الثورة وقوى الثورة المضادة. فالامبريالية والصهيونية والرجعية العربية لا تنتصر على الثورة، ولا تسود بالعدوان المباشر، او القمع فحسب، وانما بتسويد واشاعة الوعي الزائف والايديولوجية الفاسدة بين الجماهير. وهنا يبرز دور المثقفين الثوريين العرب في أشدّ المراحل الحاحاً وحاجة الى فاعليتهم ونضالهم.

○ إن الدعوة الى ثورة ثقافية مباشرة ــ كما يحلو للبعض ان يفعل ــ دعوة باطلة. لا سبيل الى ثورة ثقافية قبل سيطرة القوى الثورية على السلطة. ان الثورة الثقافية هي تغيير للهياكل والأبنية التشريعية والفكرية والثقافية والسلوكية والذوقيّة.. الى آخر ذلك. وهذا لن يتم عملياً إلا من خلال سلطة ثورية. ولكن المطلوب اليوم وغداً ــ وهو ما هو متحقق بالفعل، ولكن المطلوب مضاعفة الجهود من أجله ــ هو إشاعة الثقافة الثورية وهزيمة الفكر التبريري، اللاعقلاني، الاستسلامي، واشاعة العقلانية، وتأصيل الفكر العلمي نظرياً وتطبيقياً على واقعنا. ولسنا نبدأ كذلك من فراغ. بل لعل الثقافة العربية الراهنة عامة عنصر من اشد العناصر فعالية في النضال العربي الوطني والقومي والاجتماعي المحتدم اليوم. بل أكاد استشعر ــ كما اشرت في حديث قديم لا أدري أين ــ اننا في بداية عصر نهضة جديد. هناك ملامح لنضج وابداع فكري في مختلف المجالات السياسية والفلسفية والاقتصادقة والادبية، يتواكب مع بروز ونضج مرحلة نضالية جديدة.

على أن المهم هو ربط هذا الابداع الثقافي الجديد بالوعي الجماهيري، ارتفاعاً بالوعي الجماهيري وتعميقاً للابداع الثقافي نفسه.

○ ترتفع بعض الكتابات هذه الايام بالدعوة الى نقد العقل العربي.. انها دعوة مجردة غير موضوعية وغير تاريخية، فماهو المقصود بالعقل العربي؟

فليس هناك عقل عربي واحد، بل هناك تيارات فكرية متعددة مختلفة. ينبغي بالفعل ان نمارس النقد ضد التيارات اللاعقلانية والتجزيئية والهامشية خلال نقد موضوعي علمي للواقع الاجتماعي نفسه. ولكن ينبغي ان نجمع بين هذا النقد النظري والنقد التطبيقي في سياق النضال الجماهيري نفسه كذلك، فلا نكتفي بتجريدات نظرية معلقة.

ـ فلترتفع ولتعمق ممارساتنا ممارساتنا النقدية والابداعية والنضالية فكراً وممارسة.

ـ وليرتبط فعلنا الثقافي باحتياجات النضال الشعبي والوطني والاجتماعي والقومي وممارساته العملية.

ـ وليكن نضالنا من اجل الديمقراطية،من اجل حرية التعبير، حرية الابداع،

حرية النضال السياسي، على رأس ممارساتنا، بل مصادماتنا.

ـ ولتتنوع اجتهاداتناالفكرية والسياسية كمثقفين، ولكن تتوحد في اطار العداء للامبريالية الامريكية والصهيونية والرجعية ومن اجل وطن عربي متحرر متقدم ديمقراطي موحد.

لا يأس مع الوعي الموضوعي، ولا استسلام مع النضال الجماعي، ولا سبيل للخروج من الهزيمة الا بهزيمتها فكرياً وعملياً، بالانخراط في الفعل السياسي الاجتماعي الثوري. في الفعل التاريخي.

لا... اننا لا نبدأ من فراغ ايها الزملاء الاعزاء، وانما نواصل نضالات وابداعات المثقفين العرب في مختلف المواقع والمواقف، والساحات السجون في وطننا العربي.

ولكن ما أحوجنا مع ذلك الى لقاء كبير، لقاء ديمقراطي حي يجمع المثقفين العرب في مؤتمر عام بعيداً عن وصاية الانظمة، لتبادل الرأي وتجديد العهد، وتحديد الخطوات الجديدة في المسيرة المستمرة...

وشكراً.. «للآداب»

باريس

دار الآداب تقدم

زوربا
نيكوس كازنتزاكي ـ ترجمة جورج طرابيشي

- العراب **ماريو بوزو**
- الموت السعيد
البير كامو ـ ترجمة عايدة مطرجي ادريس

الغريب وقصص اخرى
البير كامو ـ ترجمة عايدة مطرجي ادريس

- قصة حب
اريك سيغال
- قصة اوليفر
اريك سيغال
- الموت حبا
بيار دوشين
- صورة الفنان في شبابه
جيمس جويس ـ ترجمة ماهر البطوطي
- الجحيم
هنري باربوس ـ ترجمة جورج طرابيشي
- الشوارع العارية
فاسكو براتوليني ـ ترجمة ادوار الخراط
- الصخب والعنف
وليم فوكنر ـ ترجمة جبرا ابراهيم جبرا